

المقدمة

الحمد للَّه الذي فضل بني آدم بنعمة البيان، وخصَّهم من بين سائر مخلوقاته بالنطق باللسان، والصلاة والسلام على نبينا محمد أفصح الثقلين الإنس والجان، وعلى آله وأصحابه خيرة بني الإنسان، ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم العظيم الدَّيَّان.

أما بعد:

فإن الانسان في هذه الحياة لم يُترك سدى، ولم يُخلق هملاً، بل سيأتي له يوم يقف فيه بين يدي اللَّه، ويسأل فيه عمَّا خُلق لأجله، ويُجازى بما اكتسب من خير أو شر، والسعيد من وفقه اللَّه لصالح القول والعمل.

وإن من أعظم موجبات الفلاح، وأكبر أسباب الفوز برضى اللَّه في الدنيا والآخرة استعمال الجوارح فيما خلقت له وصيانتها عن ما حرم اللَّه.

ومن أهم تلك الجوارح أثرًا، وأشدها خطرًا: اللسان، فهو

المُبين عن اعتقاد الجنان، وما ينطوي عليه من كفر أو إيمان.

وبه تناط كثيرٌ من الأحكام التكليفية في العقائد والعبادات والمعاملات.

ولأهمية هذا الأمر تناول العلماء -قديمًا وحديثًا- بيان المسائل المتعلقة بالكلام والصمت: متى يشرع ومتى لا يشرع، وكتبوا في ذلك كثيرًا من المصنفات، إما مفردة أو تبعًا.

وقد كان لفضيلة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك -نفع اللَّه بعلمه- محاضرة بعنوان: «مسؤولية الكلمة» أبان فيها شيئًا من أهمية هذا الموضوع وخطورته، وبعض ما يتصل به من الأحكام.

ولما رأيتها كذلك رغبت في إخراجها على هيئة رسالة لطيفة لعل اللَّه ينفع بها من يشاء من عباده.

فشكر اللَّه لفضيلة الشيخ إذنه بذلك، وكتب اللَّه له ولمن تولى هذا العمل حسن العاقبة في الدنيا والأخرى.

وصلى اللَّه على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

ترجمة موجزة لسماحة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك -حفظه اللَّه تعالى-

● **اسمه:**

عبد الرحمن بن ناصر بن براك بن إبراهيم البراك، ينحدر نسبه من بطن آل عُرينه المتفرع من قبيلة سُبيع المُضرية العدنانية.

● **ولاته:**

ولد الشيخ في بلدة البكيرية من منطقة القصيم في سنة **١٣٥٢**هـ. وتوفي والده وهو صغير فلم يدركه، وتولت والدته تربيته فربته خير تربية، وقدر اللَّه أن يصاب الشيخ بمرض تسبب في ذهاب بصره، وهو في التاسعة من عمره.

● **طلبه للعلم ومشايخه:**

بدأ الشيخ طلب العلم صغيرًا، فحفظ القرآن وعمره اثنتا عشرة سنة تقريبًا، وكان قد بدأ قراءته على بعض أقاربه ثم على

مقرئ البلد عبد الرحمن بن سالم الكريديس، وطلب العلم في بلده على الشيخ محمد بن مقبل المقبل قاضي البكيرية، والشيخ عبد العزيز بن عبد اللَّه السبيل (قاضي البكيرية، والخبراء، والبدائع بعد شيخه ابن مقبل).

ثم قُدِّرَ له السفر إلى مكة، ومكث بها بضع سنين، فقرأ فيها على الشيخ عبد اللَّه بن محمد الخليفي إمام المسجد الحرام، وهناك التقى برجل فاضل من كبار تلاميذ العلامة محمد بن إبراهيم وهو الشيخ صالح بن حسين العراقي، ثم أرتحل عام **١٣٦٩**هـ برفقة الشيخ العراقي إلى الشيخ ابن باز حين كان قاضيًا في بلدة الدلم، ومكث عند الشيخ ابن باز قرابة السنتين، وكان مدة إقامته لها أثر كبير في حياته العلمية.

● **آثاره:**

لسماحته آثار واضحة في كثير من المجالات ومن أهمها:
جلس الشيخ للتعليم في مسجده الذي يتولى إمامته -مسجد الخليفي بحي الفاروق-، ومعظم دروسه فيه، وكذلك التدريس في بيته مع بعض خاصة طلابه، وله دروس في مساجد أخرى، إضافة إلى مشاركاته الكثيرة في الدورات العلمية المكثفة التي تقام في الصيف، وإلقائه للمحاضرات في مدينة

الرياض، وغيرها من مناطق المملكة، وتبلغ دروسه الأسبوعية أكثر من عشرين درسًا في علوم الشريعة المختلفة، ويتميز الشيخ أيضًا بإقراء علوم اللغة، والمنطق، والبلاغة.

● **مؤلفاته:**

الشيخ عازف عن التأليف بسبب ازدرائه لنفسه، وانشغاله بالتعليم، مما أدى إلى قلة مؤلفاته لكن للشيخ دروس، وشروح كثيرة مسجلة منها على سبيل المثال: مقدمة في علم العقيدة، وشرح الأصول الثلاثة، وشرح القواعد الأربع، وشرح كتاب التوحيد، وشرح كتاب كلمة الإخلاص لابن رجب، وشرح حائية ابن أبى داود، وشرح مسائل الجاهلية، وشرح العقيدة الواسطية، وشرح العقيدة الطحاوية، وشرح مجردة لوامع الأنوار في عقائد أهل الآثار لابن شكر الشافعي، وشرح كتاب عمدة الأحكام (الطهارة) وعقيدة أصحاب الحديث، وملحة الأعراب، وغيرها كثير جدًّا، وما لم يسجل أكثر. وقد خرج له رسالة بعنوان جواب في الإيمان ونواقضه، وسيخرج قريبًا -إن شاء الله- شرح للتدمرية.

● **ثناء العلماء عليه:**

أثنى على الشيخ كثير من العلماء، بل لم نر أحدًا ممن عرفه

توقف في الثناء عليه، ومنهم سماحة العلامة ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ شيخه فقد قال عنه مرة: إنه رجل مسدد، وتقدم تكليفه له في الفتيا مكانه فهو محل ثقته. ولما سأل الشيخُ محمدُ المنجد العلامةَ ابنَ عثيمين في آخر أيامه من نسألُ بعدَك؟ فأثنى عليه، وعلى الشيخ صالح الفوزان، ووجه لسؤالهما.

وأخيرًا نسأل اللَّه أن يبارك في عمر الشيخ، ويهيئ له من يجمع علومه، وفتاواه؛ فإنها محررة قائمة على الدليل والتحري، والدقة، وبعد النظر، نحسبه كذلك، ولا نزكيه على اللَّه، كما نسأله سبحانه أن يمد في عمره على العافية، وتقوى اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وينفع المسلمين بعلمه.

* * *

مقدمة في خطر اللسان

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده اللَّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله اللَّه تعالى بالهدى ودين الحق، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في اللَّه حق جهاده، وترك أمته على محجةٍ بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فصلوات اللَّه وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن مسؤولية الكلمة تعني مسؤولية الإنسان المكلف عن الكلمة، فالمكلف مسؤول عن كلامه في الدنيا وفي الآخرة.

ولعل هذا الموضوع من أهم الموضوعات التي يجب اعتناء المسلم بها، وذلك لعظم خطر الكلمة، وعظم شأنها في الخير والشر، فالكلمة عظيمة الشأن في الخير والشر، وكلام الإنسان أكثر من أفعاله، بمعنى أن ما يصدر عن الإنسان المكلف من

الكلام أكثر من أي فعل آخر يزاوله أو يفعله بجوارحه من سمع، وبصر، ويد، ورجل، فالجوارح تكل وتتعب، أما اللسان فإنه عضوٌ لين مطاوع، لا يتعب ولا يكل، فمتى قال أحد بأن لساني تعب؟! وهو أداة (طيعة)، له وظيفة يؤديها كغيره من الأعضاء، لكنه أخطر هذه الأعضاء كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن أبي سعيد الخدري رفعه قال: «**إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ فَتَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا**»(١). لأن اللسان هو المعبر عما في الفؤاد.

● بيان نعم الله على عباده، وخصوصًا نعمة البيان:

وقد امتن الله سبحانه وتعالى على عباده في كتابه بنعمه عمومًا وخصوصًا، إجمالًا وتفصيلًا، إجمالًا وتعدادًا، كما في سور القرآن، ومنها الامتنان بالنعم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١٨].

ومن النعم العظيمة التي امتن الله بها على الإنسان نعمة

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: (الزهد)، باب: (ما جاء في اللسان) برقم: (٢٤٠٧)، والإمام أحمد في مسنده، مسند أبي سعيد الخدري، برقم: (١١٩٠٨) والحديث حسنه الشيخ الألباني في صحيح سنن الترمذي.

البيان، قال اللَّه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤].

- **معنى البيان وأنواعه:**

والبيان بمعنى: الإبانة أو التبيين وهو النطق، أي علمه النطق الذي يعبر به عمَّا في نفسه، والبيان -كما قال العلماء- نوعان (بيانان): بيان بالكلام المسموع، وبيان بالكتابة المقروءة، فهما بيانان، وقد فصَّل ﷻ ذلك بأن امتن على الإنسان بأن خلق له أدوات النطق والبيان، النطق والكلام، وأهمها اللسان والشفتان، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ﴾ [البلد: ٨-٩].

واللسان والشفتان هما من أدوات النطق المركبة في الإنسان، فالأدوات كثيرة ومتعددة، فمنها: الحلق، والأسنان والأضراس، لكن اللسان هو أهمها، ولهذا فإن اللغة يطلق عليها اللسان، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ يعني بلغتك، فاللغة تسمى لسانًا لأنها تكون باللسان. واللسان هو العضو المخلوق المركب في الإنسان.

- **نعمة البيان بالكتابة وهي التي تكون بالقلم:**

وقد امتن اللَّه ﷻ على الإنسان بتعليم الكتابة، قال تعالى:

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ [العلق: ٣-٤].

فامتن اللَّه ﷻ على الإنسان بأن علمه البيان، بيان بالنطق والكلام، وبيان بالكتابة، وقد قيل: «**القلم أحد اللسانين**»، فما يتكلم به الإنسان وينطق به ويعبر به يمكن أن يسجله مكتوبًا، ولهذا كان القلم أداة لتدوين ما تفيض به العقول من خير وشر، فالكتابة كالكلام المنطوق، بل الكتابة كلام مسطر يعبر عنه بالوجود الرسمي، وأصل الكلام في الذهن، في العقل، ثم يعبِر عنه اللسان، ثم يدون بالقلم كتابة، فهاتان نعمتان، نعمة البيان باللسان (النطق والكلام)، ونعمة البيان بالكتابة التي تكون بالقلم، قال تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم: ١]، فأقسم اللَّه سبحانه بالقلم للإشارة إلى عظم هذا الأمر وأهميته، فما أعظم هاتين النعمتين، نعمة الكلام والنطق، ونعمة الكتابة، نعمتان عظيمتان.

● أنواع الكلمة، وبيان أنها نوعان: طيبة وخبيثة:

وهاتان النعمتان كغيرهما من النعم هما بحسب حال المتكلم أو الكاتب، فكما أن الكلام يتنوع فكذلك الكتابة تتنوع بحسب الكاتب، وبحسب المتكلم، وبحسب متعلق الكلام ومتعلق الكتابة، والكلمة تنقسم إلى طيبة وخبيثة، قال

اللَّه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

وقال اللَّه ﷻ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وقال ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»(١).

دلت هذه النصوص السابقة على أن الكلمة - وإن شئت قل الكلام - تنقسم إلى طيبة وخبيثة، وإلى ما فيه خير وما فيه شر، فالكلام ينقسم، فمنه ما هو طيب، ومنه ما هو خبيث، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، البخاري، كتاب: الأدب، باب: (من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فلا يؤذ جاره)، برقم: (٦٠١٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان، برقم: (٤٧).

وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

● **الكلمة الطيبة، معناها وفروعها:**

وهذه الكلمة التي مُثلت بالشجرة الطيبة قد فسرت بكلمة الإسلام، بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، وهي أفضل شعب الإيمان، وأفضل كلمات الذكر الأربع (سبحان اللَّه، والحمد لله، ولا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر)، وهي رأس الأمر وعليها مدار دين الإسلام، فهي أطيب كلمة، وأفضل كلمة، وهي كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، كما في الحديث الصحيح: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ: بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»(١). فهي أعلى وأفضل شعب الإيمان، لأنها أصل الدين، وبها يحصل الدخول في الإسلام، وأول واجبٍ على المكلف هو الشهادتان، شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه.

وهي كلمة التوحيد، لأنهُ المقصود بها، وهي أصل دين

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة، البخاري في كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، برقم: (٩)، مسلم في كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، برقم: (٣٥) واللفظ له.

الرسل، ثم يتفرع عن هذه الكلمة كل كلم طيب، فهذه الكلمة لها فروع من الكلام مفصل في القرآن والسنة، فكل ما أمر اللَّه به من الكلام وجوبًا أو استحبابًا فهو من الكلم الطيب، فمن هذا التسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعاء، وكل ذكرٍ لله، فدعاء اللَّه بالتوجه إليه، والتضرع إليه كقول: رب اغفر لي، وارحمني، وارزقني، رب أصلح لي في ذريتي، كل هذا من الكلم الطيب، فالأدعية المشروعة من الكلم الطيب الذي فيه الخير للداعي والداعي له معه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والكلام الذي يحدث به الإصلاح بين الناس كل ذلك من الكلم الطيب، قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤] فعطف المعروف على الصدقة من عطف العام على الخاص، ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ﴾، فالإصلاح بين الناس هو من المعروف، والأمر بالصدقة من المعروف، ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ أي: أكثر كلام الناس لا خير فيه، والكلام الذي لا خير فيه، إما أن يكون محرمًا، أو مكروهًا، أو من فضول الكلام الذي هو ضياع للأوقات، مشغلٌ للأذهان، وكل

الكلام الطيب هو من فروع الكلمة الطيبة التي كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، ومن ذلك التواصي بالحق والتواصي بالصبر، كما نص اللَّه على ذلك فهذا من الكلم الطيب، فالدعوة إلى اللَّه باللسان وبالقلم، والدعوة إلى اللَّه تكون بأمر الخلق بما أمر اللَّه، بدعوتهم إلى الدخول في الإسلام، بدعوتهم إلى طاعة اللَّه، بدعوتهم إلى الفضائل، بتحذيرهم من الكفر والفسوق والعصيان، هذا كله يندرج في الكلم الطيب، بل من الكلام ما أصله مباح لكنه بالنية الصالحة يكون عبادة فيكون من الكلم الطيب كأي كلام يريد به الإنسان الخير، يؤانس جليسه، يؤانس أهله، يؤانس ولده، فأصل الكلام من هذا النوع مباح، لكن إذا استحضر الإنسان النية فيه وأراد به القربة إلى اللَّه، كان عبادة، وأصبح من الكلم الطيب الذي يصعد إلى اللَّه فيثاب عليه العبد.

● الكلمة الخبيثة، معناها وفروعها:

ويقابل ذلك المثل الثاني في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي كلمة الشرك مقابل كلمة التوحيد، كلمة الكفر هي أخبث كلمة، كما أن كلمة التوحيد هي أطيب الكلمات لاشتمالها على أعظم المعاني قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ

إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

هذه الشهادة أعظم شهادة، شهادة من اللَّه وملائكته وأولي العلم له ﷻ بتفرده بالإلهية، فهي أعظم شهادة من أجل شاهد بأجل مشهود به، يقابلها نقيضها كلمة الكفر وهي كثيرة متنوعة، كل ما يناقض مقتضى الشهادتين وحقيقة الشهادتين، شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وشهادة أن محمدًا رسول اللَّه، فهو من ذلك، كدعاء غير اللَّه، والاستغاثة بالأموات والغائبين، والاستهزاء بآيات اللَّه وبرسول اللَّه، وجحد آيات اللَّه قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، يقولون للرسول إنه ليس برسول، إنه مجنون، كاهن، ساحر، كذاب، كلها من جنس الكلمة الخبيثة التي قال اللَّه فيها: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ موازنة بين الطيب والخبيث، بين الكلم الطيب والكلم الخبيث.

● **فروع كلمة الكفر:**

ولهذه الكلمة - كلمة الكفر- فروعٌ: كما قال ﷻ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ

إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ﴾ [التوبة: ٧٤]، وفروع هذه الكلمة، الكلم المحرم كالكذب، والغيبة، والسخرية بعباد اللَّه، فهذه الفروع لا تبلغ منزلة كلمة الكفر، وقد ذكر اللَّه بعضًا من فروع هذه الكلمة الخبيثة حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١١-١٢].

ومن أنواع الكلم الخبيث أيضًا كل كلم محرم، كشهادة الزور التي قال فيها الرسول -عليه الصلاة والسلام-: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟**» ثَلَاثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «**الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ - وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ - أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ**»، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ(١). كذلك السخرية بالمؤمنين، وكذلك مدح الباطل

---

(١) متفق عليه من حديث أبي بكرة، البخاري في كتاب الشهادات، باب ما جاء في شهادة الزور، برقم: (٢٦٥٤) واللفظ له، ومسلم في كتاب الإيمان، باب ما بيان الكبائر وأكبرها، برقم: (٨٧).

وذم الحق .

● **الكلام المباح:**

إذًا الكلام قسمان: طيب وخبيث، وبين ذلك الكلام المباح، إما أن يكون فضولًا تركه أولى، وإما أن تقترن به نية سيئة فيكون من الكلام الخبيث، وإما أن تقترن به نية صالحة فيكون من الكلم الطيب، ومن الكلام الذي فيه خير قوله ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»(١) . يقول النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعليقًا على هذا الحديث: (**ينبغي للمكلف أن يحفظ لسانه عن كل كلام لم تظهر فيه المصلحة، فإن تساوى الكلام وتركه في المصلحة، فتركه أولى، فإن الكلام المباح، قد ينجر إلى حرام أو مكروه، والسلامة لا يعدلها شيء**) هذا الكلام مستمد من كلام المعصوم ﷺ، الذي أوتي جوامع الكلم، من قوله: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»(٢)، أي: فليسكت.

* * *

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

مسؤولية الكلمة

المقصود بمسؤولية الكلمة: مسؤولية المكلف عن كلامه، قال الله ﷻ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]، قال كثير من المفسرين: (**المقصود السؤال عن لا إله إلا الله**)، وقال بعضهم: (**عما يقول المشركون من الأقوال الباطلة**)، ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

فكل إنسان مكلف، مسؤول عن أعماله وأقواله، وأحواله، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣] والقول عمل، بل هو من أعظم أنواع الأعمال وأخطرها، فالسؤال عام، يُسأل العبد عن أعماله، عما قال وعما فعل وعما ترك مما هو مأمور به، ويُسأل الكفار والعصاة عن أقوالهم وأعمالهم، ليس سؤال استعلام بل هو سؤال توبيخ وتقرير، وبهذا يظهر الجمع بين قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ أي: لا يسألون استعلامًا، لكنه

سؤال توبيخ، فيقال لهم: لم قلت؟ ولم قلت؟ وفي المقابل يُسأل الرسل عن التبليغ، يسألون عن تبليغ الدعوة، وفي هذا إظهار لكرامتهم، وفضلهم كما يُسأل الصادقين من الناس، كما قال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٨]، فيسأل الصادقون عن صدقهم، وفي هذا أظهار لكرامتهم، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

فعيسى يقول اللَّه له: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ﴾ [المائدة: ١١٦]، ففي هذا إظهار لكرامته، وإظهار لصدقه، فيجيب قائلًا: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]، وفي هذا تكذيب وتبكيت للنصارى الذين اتخذوه وأمه إلهين من دون اللَّه، افتراءً على اللَّه، وافتراءً على المسيح، إذًا الكل مسؤول عما يقول، وعما يعمل، بل كل مكلف مسؤول عن كل النعم التي أنعم اللَّه بها عليه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

• المسؤولية نوعان:

والمسؤولية نوعان: مسؤولية الآخرة - وهي مسؤولية عظيمة - ومسؤولية في الدنيا، فمسؤولية الدنيا تتعلق بما شرع اللَّه من الأحكام والأقوال، فالإنسان إذا تكلم بكلام تجاوز فيه حدود اللَّه فإنه لا بد أن يُسأل وأن يقام عليه حكم اللَّه، فإن تكلم بكلمة الكفر وصار به مرتدًا فإنه يُساءل، ويقام عليه حكم اللَّه، وإذا تكلم بمنكر كذلك، حوسب على ذلك، وأنكر عليه وعُذِّر، ومن ذلك مثلًا ما شرع اللَّه من حد القذف: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

هذه مسؤولية الكلمة، فكلٌّ مسؤول عما يقول.

• بيان دقة الحساب في الآخرة، وأنه يكون بمثقال الذر:

الإنسان ليس حرًّا في تصرفاته في هذه الحياة، بل هو عبد يجب أن يتقيد بشرع اللَّه، ومنه مراعاة ما يخرج منه من كلام، فليس للإنسان أن يتكلم بما شاء وبما عنى له، بل عليه أن يقف وأن يقدر خطر الكلمة، وقد أخبر ﷻ أنه وكّل بالإنسان من يرصد عليه كلامه ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨] قوله: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ﴾ نكرة في سياق النفي فتعم، والمعنى:

يكتب ويرصد على الإنسان كل ما يتكلم به، هذا شيء لا نتصوره، أعني هذه المقدرة وهذه الإحاطة، فكل إنسان موكل به من يرصد كلامه، ويرصد أعماله، بما فيها الهموم التي في القلوب ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢] وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ هذا عامٌّ في هموم الإنسان في باطنه وفي قلبه، وإراداته وعزماته، وأعماله، فيشمل أعمال القلب، ويشمل أقوال اللسان كذلك، لأن الكلام من أهم ما يصدر عن الإنسان، فهو مرصود، وأعماله كلها قد أحصاها اللَّه، أي أن الإنسان وكل اللَّه به من يرصد كلامه ويحصي عليه الكلام والأعمال، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦] يُحصى على الإنسان مثاقيل الذر من الأعمال قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

هذا الشاهد للأعمال كلها ومنها الأقوال، ومما يستدل به على الأقوال ما رواه أبو داود في سننه عن عبد اللَّه بن عامر، أنه قال: دَعَتْنِي أُمِّي يَوْمًا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَاعِدٌ فِي بَيْتِنَا، فَقَالَتْ: هَا تَعَالَ أُعْطِيكَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَمَا أَرَدْتِ**

أَنْ تُعْطِيهِ؟» قَالَتْ: أُعْطِيهِ تَمْرًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تُعْطِهِ شَيْئًا كُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذْبَةٌ**»(١)، يمكن أن تكون هذه مما نمثل به لمثقال الذرة، وقد تكون الذرة دون ذلك، وقال ﷻ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

• موعظة بليغة عن مسؤولية الكلمة، ولو كانت مباحة:

مثاقيل الذر!! والله إننا لم نقدر هذا الخطر، كم نتكلم وكم نفيض في الكلام وما نشعر بمسؤولية الكلمة، ربما نعرف هذا الكلام من الناحية النظرية، أما كواقع عملي تطبيقي فكثير منّا بعيد كل البعد عن تقدير خطورة هذه المسؤولية، ولذلك يقول النبي -عليه الصلاة والسلام-: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت**»، انظروا إلى المجالس الآن، التي يجلس الناس فيها بالساعات، فالمجالس الآن لا تكاد تخلو من فضول الكلام، هذه المجالس التي يكون هدفها التسلية وتضييع الأوقات، ولو رجعنا إلى مضمون هذا الكلام

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب، برقم: (٤٩٩١)، والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح سنن أبي داود.

الذي يدور في تلك المجالس، لوجدنا أنه إما أن يكون محرمًا، وإما أن يكون مكروهًا، وإما أن يكون فضولًا، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

فلا تتكلم بما يجب الاحتياط فيه والحذر، ولا تتكلم بما ليس لك به علم، ولا تدَّعِ أنك رأيت ولم تر، أو أنك سمعت ولم تسمع، أو أنك تعتقد كذا، أو تريد كذا، وأنت بخلاف ذلك، ولا تظن أيضًا، لأن الظن يدخل في مسؤولية الفؤاد، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ﴾ لا تتبع ولا تقل ما لا علم لك به، وأخطر ذلك وأقبحه: القول على اللَّه بغير علم، فإن هذا من أعظم المهالك، القول على اللَّه بغير علم في ذاته أو صفاته أو أفعاله أو أحكام دينه، فلا تصف اللَّه بما لم يصف به نفسه، ولا تسمه بما لم يسم به نفسه، ولا تضف إليه من الأفعال ما لم يأت به كتاب ولا سنة، ولا تتكلم في كيفية ذاته أو صفاته، فكل ذلك من القول عليه بغير علم ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩].

وكذلك في شأن الناس، لا تقل على أحد بغير علم، ولا ترم الناس بما ليس فيهم ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٢]، ومنه القذف الموجب

للحد كالقذف بالزنا، أو القذف بما دون ذلك مما يوجب تعزيرًا، كل ذلك من المنكرات، مما يسأل عنه الإنسان في الدنيا، ويحاسب عليه، ويستوجب عليه العقاب الشرعي، وإن نجا من ذلك في الدنيا، لم ينج من سؤال الآخرة يوم القيامة، فخلاصة القول، أن الإنسان مسؤول عن كلامه .

• أقسام الكلام، وبيان أنه تجري فيه الأحكام التكليفية الخمسة:

قال العلماء : الكلام ينقسم إلى أقسام: واجب، ومستحب، ومكروه، وحرام، ومباح، فيسأل الإنسان عما تكلم به من حرام، لم قلت؟ ويسأل عما سكت عنه من الكلام الواجب لِمَ لمْ تقل؟ لِمَ لمْ تتكلم؟ لِمَ لمْ تأمر بالمعروف؟ ولِمَ لمْ تنه عن المنكر؟ لِمَ لمْ تؤد الشهادة؟، ومن منكرات السكوت، كتمان الشهادة قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، كما أن شهادة الزور من الكلام المحرم، فكتمان الشهادة من السكوت المحرم، كما قيل: (**إن المتكلم بالباطل شيطان ناطق**)، والساكت عن الحق، عما يجب عليه من الكلام، من أداء شهادة أو بيان حق أو أمر بمعروف أو نهي عن

المنكر، الساكت عن الحق شيطان أخرس، لأنه سكت في موضع يجب فيه الكلام والبيان، فهو مسؤول عن سكوته، وعما تركه مما يجب عليه من الكلام، فهذا كله داخل في مسؤولية الكلمة، فالعبد مسؤول في كل الأحوال، سواء تكلم أو لم يتكلم، إن تكلمت في الأعراض فأنت مسؤول عما قلت، وإن سكت عما يجب، كذلك أنت مسؤول عن سكوتك، لأن الكلام متنوع الحكم، تجري فيه الأحكام الخمسة، وجوبًا، واستحبابًا، وتحريمًا، وكراهةً، وإباحةً، ويشهد لذلك قول النبي -عليه الصلاة والسلام- : «**كُلُّ كَلَامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَا لَهُ، إِلاَّ أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْيٌ عَنْ الْمُنْكَرِ، أَوْ ذِكْرُ اللهِ**»(١) . كل ما يتكلم به الإنسان، فهو عليه، يعني مسؤول عنه ومحاسب عليه، وقد يعاقب عليه، فكل كلام ابن آدم عليه، أما الكلام المحرم فهو بيِّن، وأما الفضول؛ فلأن فيه إضاعة للوقت، هذا هو الواقع، فمن تأمل نفسه وحاله وتدبر أحوال الناس، وجد أن الأمر مؤلمٌ ومؤسفٌ وموجع؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله، سبحان الله العظيم!!

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان، برقم: (٢٤١٢)، وابن ماجة في سننه، كتاب الفتن، باب كف اللسان، برقم: (٣٩٧٤).

حاسب نفسك يا عاقل، في يومك وليلتك، تأمل كلامك حسب هذه الأقسام الخمسة ماذا تجد؟

وهذا يعني تفاوت الناس في هذا الجانب، فمن الناس من يكون كلامه الطيب أكثر من الفضول أونحوه، ومن الناس من يكون كلامه الخبيث هو أكثر وأكثر.

• بيان أن هناك صنفين من الناس كلامهم شديد الأهمية وتأثيره بالغ:

ومما تقدم يتبين أصناف الناس الذين يجب عليهم أن يقدروا المسؤولية، ويعدوا للسؤال جوابًا، وللجواب صوابًا، فمن الناس من يكون لكلامه تأثير على الناس، لأن من الكلام ما ليس له تأثير على أحد من الناس، بل يختص بالمتكلم نفسه، أو يمكن أن يكون كلامًا محرمًا، أو مكروهًا، لكن ليس له التأثير العام، أما الكلام الذي له التأثير العام، فهو الذي يتوجه به إلى الناس وينشر بينهم، فمن ذلك : الكلام الذي تقصد به الدعوة، لأن الداعي يدعو إلى أمور، والدعوة نوعان: دعوة إلى اللَّه، أو دعوة إلى النار، وهذا التقسيم موجود في القرآن، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وقال سبحانه : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال تعالى : ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فهما دعوتان، فالداعي إلى اللَّه يمتد كلامه ويتسع أثره فيعود عليه بالأجور المضاعفة، كما في الحديث الصحيح: عن أبي هريرة، أن رسول اللَّه ﷺ، قال: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا**»، وفي المقابل: «**وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**»(١).

والدعوة إلى اللَّه -كما تقدم- تكون باللسان، كما في الخطب، وفي المحاضرات، وفي الدروس، وفي مجالات واسعة، وتكون أيضًا بالكتابة، فالدعوة تكون بالكلام المسموع، وتكون بالكتابة المقروءة، وكذلك الدعوة إلى الباطل، إلى الكفر، إلى المعاصي، هذه أيضا تكون باللسان،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب من سن سنةً حسنةً أو سيئةً ومن دعا إلى هدًى أو ضلالة برقم: (٢٦٧٤).

يتكلم بها المحاضرون، فهناك محاضرات لنشر الباطل وتزيينه والدعوة إليه، وكذلك في الكتابات، فالكتابة في الباطل مجالها واسع وتشمل الكتب المؤلفة قديمًا وحديثًا، فكما أن أهل العلم والإيمان كتبوا، وألفوا، وسطروا، وأفتوا - فأحسنوا - وأفادوا أهل زمانهم ومن بعدهم، كذلك أهل الباطل، كتبوا، وألفوا، وسطروا، وأفتوا أهل زمانهم ومن بعدهم، فهما الآن ميراثان موجودان، ميراث النبوة، وميراث أعداء اللَّه، وأعداء الرسل، وأشباههم، من المنافقين، والكافرين، ومن جرى مجراهم وسلك سبيلهم.

● **تأثير وسائل الإعلام المختلفة على خطورة الكلمة وزيادة أثرها في المجتمع:**

وفي هذا العصر عَظُمَ أثر الكلمة سواء كانت مسموعة أو مكتوبة، لتوفر وسائل البث والنشر، وإيصال الكلام أو الكتابة، وقد تسبب توفر هذه الوسائل الهائلة في عِظَم خطر الكلمة خيرًا وشرًّا، طيبةً كانت أم خبيثة، فالكلمة الطيبة تبلغ آمادًا بعيدة، والكلمة الخبيثة كذلك، وهذه الوسائل تُستثمر من أصناف الناس على اختلاف توجهاتهم، وأفكارهم؛ فالعلماء والكتاب الصالحون والدعاة إلى اللَّه بحسب مراتبهم،

يستثمرون هذه الوسائل لنشر العلم، والدعوة إلى اللَّه، والفتاوى، وفي المقابل يستخدمها المنافقون والكفار والفسّاق لنشر أفكارهم وتوجهاتهم، فهي أدوات بالغة الأثر في إيصال الكلمة مسموعة ومقروءة، فلهذا كانت هذه الوسائل الآن من أخطر ما يكون؛

ولما كان غالب من يتحكم في هذه الوسائل هم الكفار و المنافقون، أو الفساق، أو الجهلة، عَظُمت الفتنة والمحنة على الأمة الإسلامية، فوسائل الإعلام المختلفة كالقنوات المتلفزة، والإذاعات، والصحف بأنواعها، تبث الباطل من الكلم الخبيث، مقرونًا بالأفعال الخبيثة، فمن ذلك المجامع والمقاهي، التي توضع فيها الأجهزة، لاستقبال القنوات التي تبث الباطل، وقل مثل هذا في الإذاعات، وقل مثل هذا في الصحف، اذهبوا إلى المكتبات، هل ستجدون صحيفة إسلامية ؟! إلا ما ندر، بل معظم هذه الصحف وما تحويه، إما من نوع المنكر المحرم، وإما من الفضول، وإما من المرذول، ولهذا كان الغالب على الإعلاميين نشر الباطل من القول، إما كفرًا أو معصية أو دعوة إلى معصية، هذا هو الغالب، وقد تجد في هذه الصحف - في خضم هذا النشر- نتفًا وأشياء من الطيب، الذي يوضع في أوساط هذا العفن

الكثير، ومن أصول خطط الإعلام الازدواجية، والتنويع لجذب القراء على اختلاف توجهاتهم، وقد يُقصد ببعض ما ينشر من الخير والكلام الطيب التمويه والترويج، فينشرون بعض الخير تمويهًا، و ترويجًا لباطلهم، وتضليلًا لعامة الناس، ولهذا لا تنبغي المشاركة في تلك القنوات، أو الإذاعات، أو الصحف؛ لأن المشاركة فيها يؤدي إلى الاغترار، فيغتر الناس إذا وجدوا فلانًا يكتب في هذه الصحيفة، أو هذا الموضوع يعرض، ولهذا تجد الخير ممزوجًا بالباطل، فتجد الموضوع الشرعي، أو الموضوع العلمي، أو الديني محفوفًا بنوع من الباطل، قبله وبعده وفي أثنائه ليس هناك فرقان، ومن الباطل الذي تنشره هذه الوسائل الإعلامية، المدح الكاذب، والذم الكاذب، فأكثر الكُتاب لا ينطلقون من مبدأ صحيح، بل ينطلقون من دوافع، وأغراض شخصية .

● أصناف الكاتبين والمتحدثين في وسائل الإعلام:

ولهذا كان الكاتبون والمتحدثون في هذه الوسائل نوعان: نوع يدعو إلى الخير ويدعو إلى الفضيلة بنية صالحة، ونوع آخر – وهم الأكثر– يدعو إلى الباطل، هذا هو الغالب، وتعجبني

أبيات للشيخ محمد بن سالم البيحاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ تصور الصحفيين، ذكرها في كتابه «**إصلاح المجتمع**» فيقول:

وأرى الـصـحـافـيـيـن فـي أقـلامـهـم
وحـي الـسـمـاء وفـتـنـة الـشـيـطـان

يعني فيهم الكاتب الإسلامي العاقل المصلح، وفيهم من يدعو إلى الباطل والشر والفتنة.

فـهـم الـجـنـاة عـلـى الـفـضـيـلـة دائـمًـا
وهـم الـحـمـاة لـحـرمـة الأديـان

يعني هذا موجود وهذا موجود، ويذكر حالهم في المدح والذم، فيقول:

فـلـربَّـمـا رفـعـوا الـوضـيـع سـفـاهـة
ولـربـمـا وضـعـوا رفـيـع الـشـان

وهذا هو المشاهد والمسموع والمقروء.

❊ ❊ ❊

الخاتمة

وفي الختام علينا أن نتواصى بما وصَّانا اللَّه به ورسوله ﷺ، وهو حفظ هذا اللسان، فعن معاذ بن جبل، قال: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ، قَالَ: **«لَقَدْ سَأَلْتَ عَظِيمًا، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ»** ثُمَّ قَالَ: **«أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ تَلَا** ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾، حَتَّى بَلَغَ ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦]» ثُمَّ قَالَ: **«أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ، وَعَمُودِهِ، وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟»** قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّه، قَالَ: **«رَأْسُ الْأَمْرِ الإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ**. **ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟»** قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّه، قَالَ: فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، قَالَ: **«كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا»**. فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قَالَ: **«ثَكِلَتْكَ**

أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»[1].

وهذا مما يدل على عظيم خطر اللسان على الإنسان، وهو -كما تقدم- نعمة من نعم اللَّه تعالى، و كما يقال: **(ذو حدين)**، أداة عظيمة الأثر في الخير، وعظيمة الأثر في الشر.

فنسأل اللَّه تعالى أن يستعملنا وإياكم في طاعته، وأن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن شرور جوارحنا، كما نسأله -سبحانه- أن يستعملنا ويستعمل جوارحنا في طاعته، وفي أسباب رضاه، إنه تعالى على كل شيء قدير.

وصلى اللَّه وسلم وبارك على عبده ورسوله.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة برقم: (٢٦١٦) واللفظ له، والنسائي في كتاب الجنائز، باب ذكر الاختلاف على محمد بن أبي يعقوب في حديث أبي أمامة، في فضل الصائم برقم: (٢٢٢٤)، وابن ماجة في كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، برقم: (٣٩٧٣).

فهرس الكتاب

م- العنوان رقم الصفحة

❊ ❊ ❊